The language of God or the illusion of God

Fakhruddin Tabatabaei

PhD in Philosophy of Religion, Imam Khomeini Foundation for Education and Research, Iran.

E-mail: sft313@gmail.com

Abstract

This study tries to compare between two thoughts of two followers of Darwinism in the field of evolutionary genetics. The first one is Richard Dawkins, who attempted, by making use of the theory of evolution and genetics, to make his readers to deny the existence of God and be atheists. The other one is Francis Collins, who tried his best, by making use of those sciences, to defend the faith in God and monotheistic evolutionary doctrine. It is worth to mention that both of these two personalities are Neo-Darwinists, and both of them underwent atheism, but with the difference that the first one has become the most famous atheist in the world and the biggest authority to whom it is referred in this matter, whereas the second one has abandoned atheism to become one of the hard defenders of the faith in God.By comparing the views of these two scientists, we will get to two conclusions: the first is that the theory of evolution is neither atheistic nor theistic in itself. The second conclusion is the possibility of combining Darwin's evolution with creationism and getting to the monotheistic evolution theory, as done by some scholars like Collins.

Keywords: Richard Dawkins, Francis Collins, monotheistic evolution theory, denial of God, gene, creationism.

Al-Daleel, 2021, Vol. 4, No. 2, PP.1-20
Received: 21/5/2021; Accepted: 29/6/2021
Publisher: Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies
©the author(s)

Al-Daleel
مؤسسة الدليل
للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution
for Doctrinal Studies

لغة الإله أم توهّم الإله

فخر الدين الطباطبائي

دكتوراه في فلسفة الدين، مؤسسة الإمام الخميني للتعليم والأبحاث، إيران. Email: sft313@gmail.com

الخلاصة

يسعى المقال الحالي إلى المقارنة بين فكري شخصيتين من أتباع الداروينية في مجال علم الوراثة التطوّري، أحدهما ريتشارد دوكينز، الذي سعى من خلال الاستفادة من نظرية التطوّر وعلم الوراثة إلى سَوق قرّائه إلى نفي الإله وإلى الإلحاد، والآخر هو فرانسيس كولينز، الذي اهتمّ بدوره ـ باستخدام نفس تلك العلوم ـ بالدفاع عن الإيمان بالله والمذهب التطوّري التوحيدي، وتجدر الإشارة إلى أنّ كلا هاتين الشخصيتين من الدراوينيين الجدد، كما أنّ كلاهما مرّ بتجربة الإلحاد، مع وجود فارق وهو أنّ الأوّل أصبح، بفضل إصراره على الإلحاد، أشهر ملحد في العالم وأكبر مرجَعٍ يُرجع إليه في هذا الأمر، أمّا الثاني فقد انسلخ من إلحاده، وأصبح من المدافعين الشرسين عن الإيمان بالله. وسنصل من خلال مقارنة آراء هذين العالمين إلى نتيجتين: الأولى هي أنّ نظرية التطوّر، على غرار النظريات العلمية الأخرى ليست في نفسها نظرية إلحادية ولا إلهيّة، أمّا النتيجة الثانية فهي إمكانية الجمع بين نظرية التطوّر الداروينية ونظرية الخلق، والحصول على نظرية التطوّر التوحيدية من قبل بعض العلماء مثل كولينز.

الكلمات المفتاحية: ريتشارد دوكينز، فرانسيس كولينز، نظرية التطوّر التوحيدية، إنكار الإله، الجين، نظرية الخلق

مجلة الدليل، 2021، السنة الرابعة، العدد الثانى، صص. 1-20

استلام: 2021/5/21 ، القبول: 2021/6/29

الناشر: مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة

© المؤلف

CC BY NC

المقدّمة

ريتشارد دوكينز (Richard Dawkins) هو عالم أحياء تطوّري داروينيي ملحد (Atheist)، أستاذ متقاعد من جامعة أوكسفورد في فرع الفهم العامّ للعلوم (Public Understanding of Science)، ومن خلال مقاربته المتمحورة حول الجين، ألّف كتبه المشهورة في مجال نظرية التطوّر، وبانتشار أوّل كتابه له بعنوان "الجين الأناني" (The Selfish Gene) سنة 1976، ظهرت موجة جديدة في علم الأحياء التطوّري، وقد قام في هذا الكتاب، من خلال جعل دور الجين محوريًّا في تطوّر الموجودات، بنقل الانتقاء الطبيعي إلى مستوى الجينات، وقدّم لأوّل مرّة المفهوم الانتزاعي الميم (Meme) كوحدة للتطوّر الثقافي البشري، وبعد هذا الكتاب، وباستناده إلى نظرية التطوّر، سعى إلى الدعوة إلى الإلحاد، وألّف كتبًا مختلفة على غرار: "صانع الساعات الأعمى" (Blind Watchmaker The) و"وهم الإله" (The God delusion)، إلى حدّ أنّه أعلن في كتابه وهم الإله أنّ «هناك احتمالًا قويًّا جدًّا قد يصل إلى اليقين أنّه لا وجود لإله لهذا العالم».

أمّا فرانسيس كولينز (Francis Sellers Collins) فهو خريج دكتوراه فرع الكيمياء الفيزيائية، ودكتوراه الطبّ الداخلي والوراثة الطبّية، وفي سنة 1989 نجح في اكتشاف جين مرض سيستيك فيبروزيس (Fibrosis Cystic)، وفي سنة 1993 نصّب رئيسًا للمعهد الوطني للبحث في جينوم الإنسان (NHGRI)، واستطاع أن يحقّق أعظم بحوث التاريخ البشري وهو "رسم خريطة الجينوم البشري"، وقد تعرّف هذا المشروع إلى غاية سنة 2003 على ثلاث ملايير زوج من الجينوم البشري، ومع أنّ كولينز كان في شبابه قد مرّ بتجربة الإلحاد، إلّا أنّه تحوّل بعد بحوث عديدة في علم الوراثة إلى مؤمن متحمّس، وفي سنة 2006 ألّف كتابه "لغة الله: عالِمٌ يقدّم دليلًا على الإيمان" (The Language of God: A Scientist Presents Evidence for Belief) وعرض بولوجه لمجال اللاهوت نوعًا من النظرة التطوّرية التوحيدية، واستمرّ على هذا الطريق بتأليفه لكتابي: "لغة العلم والإيمان: أجوبة صريحة على أسئلة في الصميم" (The Language of Science and Faith: Straight Answers to Genuine Questions) وكتاب "لغة الحياة" (The Language of Life). في سنة 2009 أسّس كولينز مؤسّسة بيولوغوس (Biologos Foundation) للحوار بين القائلين بالتطوّر والمؤمنين، بيولوغوس هو اصطلاح أبدعه كولينز ويعادل التطوّر التوحيدي (Theistic Evolution).

هذا المقال يقابل بين نقاط اشتراك ونقاط اختلاف هذين العالمين، ليخلص إلى أنّ هاتين الشخصيتين ومع أنّهما عاشا نفس المسيرة العلمية، إلّا أنّهما وصلا إلى نتائج لاهوتية مختلفة إلى حدّ كبير.

نقاط الاشتراك

1ـ الاعتقاد بالتطوّر وعلم الوراثة

دوكينز: الجين هو محور تطوّر الموجودات

تعود قصّة تعلّق دوكينز بداروين ونظرية التطوّر إلى شبابه، وقد قاده هذا التعلّق إلى الدراسة في فرع علم الحيوان في جامعة أوكسفورد، وألقى بظلاله على جميع جهوده العلميّة، ويعتقد أنّ «الداروينية هي أساس جميع الفروع المرتبطة بالإنسان، وأنّ نظرية التطوّر الداروينية هي أعمق حقيقة في الطبيعة وصل إليها العلم إلى حدّ الآن» [Dawkins, Richard. The Blind Watchmaker, p.56]؛ ولهذا السبب يرى أنّ الرؤية التطوّرية فقط هي التي يمكنها أن تكشف الستار عن سرّ الوجود. [Ibid, p.12]

ويعدّ دوكينز الاستفادة من اكتشافات علم الأحياء الجزيئي وعلم الوراثة أهمّ طريق لتبيين نظرية التطوّر، وقد كان كتابه "الجين الأناني" أوّل محاولة متواصلة له في هذا الصدد، وقد قام في هذا الكتاب ببحث "التطورّ في نظر الجين" ونقل الانتقاء الطبيعي إلى أدنى مستوى من الكائنات الحيّة؛ أيّ الجينات، وسعى من خلال ذلك إلى تقديم تفسير جديد لنظرية داروين [Ibid, Preface for 2nd]، يقول في مقدّمة هذا الكتاب:

«الجين الأناني هو نظرية داروين نفسها تمّ توضيحها بشكل آخر، لو كان داروين حيًّا لشخّص هذا التوافق بلا فاصلة، ولكان ـ حسب رأيي ـ وافق عليه على الأقلّ، هذه النظرة هي في الحقيقة نتيجة للاعتقاد بالداروينية المحدّثة والتي تمّ بيانها بشكل آخر، وبدل أن تركّز على الكائن الحيّ، تنظر إلى الطبيعة من خلال الجين» [Ibid. Preface to 1989 edition].

في هذا الكتاب، بدل أن يركّز دوكينز على أنواع الموجودات أو أفراد ذلك النوع، اعتبر الجين الوحدة الأساسية في الانتقاء الطبيعي [Ibid, p.34]، وحسب رأيه، فإنّ الإنسان ليس قطعةً منفصلةً عن نسيج الطبيعة [Ibid, A Devil's Chaplain. p.5]، و أنّه «ليس هناك ترديد لدى أيّ عالم أحياء في كون التطوّر حقيقةً، وأنّ هناك قرابةً بين جميع الكائنات الحيّة» [Ibid. 1986. p.287].

كولينز: الجين هو منشأ الأنواع في الطبيعة

كولينز كذلك يثني على نظرية التطوّر ، ويعتقد أنّه «ليس هناك أيّ عالم أحياء في الوقت الحالي

يشكّك في نظرية التطوّر كتوضيح للتعقيد المحيّر وتنوّع الحياة» [Collins. The Language of God. p.99]. ويرى أنّ «التطوّر باعتباره عمليّةً يمكن بل ويجب أن يكون حقيقةً» [Ibid, p.84]، وقد كانت رئاسته لبحوث كبرى كـ "رسم خريطة الجينوم البشري" سببًا في أن يستفيد كولينز أكثر من دوكينز من علم الأحياء الجزيئي وعلم الوراثة لتوسيع آفاق جديدة لنظرية التطوّر، ومن هنا، فقد كان ـ مثل دوكينز ـ داروينيًّا محدّثًا (New Darwinism) سخّر اكتشافاته في مجال الوراثة لخدمة نظرية التطوّر.

[See: Collins. Francis S. and Karl W. Giberson, the Language of Science and Faith: Straight Answers to Genuine Questions. p.49]

«بالنسبة للذين هم مثلي يعملون في مجال الوراثة، لا يمكن تقريبًا أن نتصوّر أنّ حجمًا عظيمًا من المعلومات الحاصلة من دراسة الجينوم قد تمّ الحصول عليه دون الاستناد إلى نظرية داروين» [Collins. The Language of God. p.141].

وحسب رأيه، الرمز الجيني هو نفسه في جميع الكائنات، ويمكن بتفكيك شفرة هذا الرمز الوصول إلى أسرار الكائنات الحيّة.

وتشير البحوث التي أنجزت على جميع الكائنات الحيّة من البكتيريا إلى الإنسان أنّ الرمز الوراثي الذي تترجم معلوماته من DNA و RNA على شكل بروتين هو نفسه في جميع الموجودات التي تمّ التعرّف عليها، وليس هناك استثناء في لغة الحياة. [Ibid. p.107]

وقد كشف في مؤلّفه الستار عن عجائب الجينوم البشري:

«يتكوّن جينوم الإنسان من جميع DNA أنواعنا أو الرمز الوراثي للحياة، هذا المتن الذي تمّ الكشف عنه مؤخّرًا، يحوي ثلاث مليارات حرف، ويتشكّل من رموز عجيبة رباعيّة الحروف، تعقيد المعلومات الموجودة في كلّ خليّة من بدن الإنسان عجيبٌ إلى حدّ أنّ الإنسان إذا أراد أن يقرأ هذه الرموز، واحتاج كلّ رمز إلى ثانية واحدة، فستستغرق قراءته المتواصلة ليل نهار إلى 31 سنةً» [Ibid, Introduction, p.1]. «ومن خلال دراسة كلّ جينوم الإنسان يتبيّن أنّ 3.1 مليار حرف من رمز DNA مصفوفة على 24 كروموزومًا» [Ibid. p.124].

وحسب رأيه، تتشكّل أنواعًا أحيائيةً جديدةً بطفراتٍ وراثيةٍ، وتنقسم هذه الطفرات إلى ثلاثة أنواع: مضرّة، دون أثر و مفيدة، والنوع الثالث هو الذي يؤدّي إلى نشوء أنواع الكائنات:

«في أوساط القرن التاسع عشر لم يكن لدى داروين أيّ طريق لمعرفة آلية التطوّر والانتقاء الطبيعي، أمّا الآن فنحن نستطيع أن نرى أنّ التغيّر الذي افترض أنّه مسلّم عن طريق الطفرات التي

تحدّث بشكل طبيعي في DNA قد أصبح أقوى، يخمّن أنّ هذه الطفرات تحدث في حدود خطإٍ واحدٍ في كلّ مئة مليون زوجٍ خلال نسل واحد، أي أنّه مع أنّنا جميعًا نملك جينومين وكلّ واحد منهما لديه ثلاث مليارات زوج، أحدهما من الأمّ والآخر من الأب، فإنّه لدينا نحن جميعًا بشكل كلّي 60 طفرةً لم تكن عند أيّ واحدٍ من والدينا، ويحدث القسم الأعظم من هذه الطفرات في أجزاء من الجينوم غير ضرورية ولا حيوية؛ ولهذا تترتّب عليها عواقب ضئيلة جدًّا، بل قد لا تنتج أيّ مشكل، وتلك التي تحدث في الأجزاء المعرّضة للضرر في الجينوم مضرّة كلّها؛ ولهذا فهي تزول من المجتمع بسرعة، لأنّها تضائل القدرة على توليد النسل، ولكنّ هناك حالاتٍ محدودةً تُحدث طفرةً صدفةً بالكامل وتُوجِد درجةً ضئيلةً من المزيّة الانتقائية» [Ibid, p.131].

2ـ رفض إلٰه الثغرات ونظرية المصمّم الذكيّ

دوكينز: المصمّم الذكيّ هو مثال جديد عن الاعتقاد بإله الثغرات

إلٰه الثغرات (God of the gaps) إلـهٌ يسدّ الثغرات الموجودة في عالم الطبيعة التي لم يتمكّـن العلم من الإجابة عنها، بالإضافة إلى إلٰه الأديان الإبراهيمية، يعادي دوكينز هذا الإله كذلك، ويتمثّل الإشكال المهمّ في هذا الاعتقاد بأنّه «مع تطوّر العلم سُدّت هذه الثغرات شيئًا فشيئًا، ولم يعد هناك عمل للإله أو مكان يختبئ فيه» [انظر: Dawkins, The God Delusion p.125].

في نظر دوكينز العلوم التجريبية هي الطريق الوحيد لتوضيح عالم الوجود، وحتّى في الحالات التي يبقى العلم فيها قاصرًا عن التبيين؛ فهذا العجز مؤقّت، وبتطوّر العلم في المستقبل القريب ستسدّ هذه الثغرات، ومن هنا يعدّ دوكينز نظرية التطوّر أكبر عدوٍّ لإله الثغرات؛ لأنّه مع وجود هذه النظريّة لا يبقى مكان لفعل الإله في بساط الكائنات الحيّة، ويحذّر دوكينز من جهة أخرى من أنّ هناك مجموعةً من العلماء المؤمنين في القرن الحالي يسعون للاستفادة من نظرية التصميم الذكيّ (Intelligent Design) لكي يسدّو ثغرات الطبيعة، ويعتقد أنّ هذا الفكر «استند إلى منطق إلٰه الثغرات الخاطئ، وهو في الأساس أسلوب غير علمي ونموذج للاستنتاج استنادًا إلى الجهل» [Ibid, p.120].

كولينز: المصمّم الذكيّ نظرة غير علمية

على غرار دوكينز لا يعتقد كولينز بفكرة إلٰه الثغرات، ويعدّ التفاسير العلمية للطبيعة مقبولةً، ويرى أنّ هذه المقاربة كان يُستفاد منها في عصور مختلفة، في العصور القديمة لتفسير كسوف

الشمس، وفي القرون الوسطى لتبيين حركة الكواكب وفي العصر الحالي لتبيين منشإ الحياة وانفجار أنواع الموجودات في العصر الكامبري، وكانت لها دائمًا آثار سلبيّة على الدين. [Collins, The Language of god, p.141]

ويعدّ نظرية المصمّم الذكي نموذجًا لهذه المقاربة، ويعتقد أنّ هذا الافتراض «يصوّر الإله القادر كخالق ساذج ولا خبرة له يتحتّم عليه أن يتدخّل من وقت لآخر كي يرأب نواقص تصميماته الابتدائية» [Ibid, p.193]. وترتكز هذه الحركة حسب رأيه على أركان ثلاثة:

أـ نظرية التطوّر تروّج لنوع من النظرية الكونية الإلحادية؛ لهذا لا بدّ من اعتراضها.

ب ـ نظرية التطوّر لديها نقص في أصلها؛ لأنّها لا تقدّم إجابةً للتعقيدات المتعدّدة في الطبيعة.

جـ إذا لم يتمكن التطوّر من تبيين التعقيد المتزايد فلا بدّ إذن للمصمّم الذكيّ أن يتدخّل بشكلٍ ما. [Ibid, p 183-186]

وحسب رأي كولينز، هذه الأركان الثلاثة متزلزلة وتعترضها الكثير من الإشكالات التي من بينها:

أـ أنّ الاستدلال العلمي الأصلي لهذه الحركة هو رواية جديدة لـ "الاستدلال الناتج عن الشكوكية" للّاهوتي المعروف ويليام بالي، الذي تمّ بيانه حاليًّا بلغة علم الوراثة البيوكيميائية، والرياضيات. [Ibid, p.186]

ب ـ هذا الافتراض بقي عالقًا أصلًا في إثبات نفسه كنظرية علمية؛ لأنّه ينظر إلى الماضي بدل أن ينظر إلى المستقبل، أمّا النظرية العلميّة المعتبرة فهي تتنبّأ باكتشافات أخرى، وتقترح مقاربات لمزيد من التأييد التجريبي، وهذه المسألة تعدّ نقطة ضعفٍ كبيرٍ لنظرية المصمّم الذكيّ. [Ibid, p.187]

جـ الكثير من نماذج التعقيد قابلةٌ للاختزال، ومن هنا فإنّ الاستدلال العلمي الابتدائي للمصمّم الذكيّ هو في طور الانهيار. [Ibid, p.188]

دـ من الناحية العلميّة، نظرية المصمّم الذكيّ ليست قابلةً للاستدلال. [Ibid, p.187]

نقاط الاختلاف

1ـ التمسّك بالطبيعانيّة في الاعتقاد أو المنهج

دوكينز: التركيز على المادّية العلمية (Scientific Materialism) وعدم قبول الموجودات غير المادّية

تنقسم الطبيعانية إلى قسمين: طبيعانية منهجيّة (Methodological Naturalism) وطبيعانية أنطولوجيّة وجودية (Ontological Naturalism)، أمّا الطبيعانية المنهجية فتعتبر أنّ «المنهج العلمي هو الطريق الوحيد المعتمد للوصل إلى المعرفة» [Barbour, Religion and Science, Historical and Contemporary Issues, p 81]. ومن هنا فإنّ الحديث لم يعد دائرًا حول المسائل الغائيّة، بل يُسعى لأن تبيّن ظواهر هذا العالم وفقًا لقوانين الطبيعة [Ruse, Michael and Joseph Travis, Evolution: the first four billion years, p.236]؛ لهذا فإنّه في هذا القسم تفترض الطبيعانية أنّ ظواهر العالم تحدث وفقًا لقوانين الطبيعة غير القابلة للنقض، ولا بدّ كذلك في أيّ تفسير أن يستفاد من هذه القوانين فقط، أمّا الطبيعانية الميتافزيقية (Metaphysical Naturalism) فهي تشير إلى اعتقاد أنطولوجي فلسفي مفاده أنّه ليس هناك في العالم إلّا قوانين وقوًى طبيعية موجودة وفعّالة ، وليس هناك قوانين وقوًى ما فوق طبيعيّةٍ ولا شيء آخر فوق العالم الطبيعي.

وبالتدقيق في مقاربة العلماء التجريبيين يتبيّن أنّهم في تبيينهم للطبيعة والموجودات يتوسّلون بالعمليات الطبيعية فقط؛ ولهذا يمكن الادّعاء أنّ المقاربة الغالبة في العلوم التجريبية الحالية هي الطبيعانية المنهجيّة، أمّا دوكينز فإنّه في هذا الصدد يتقدّم خطوةً أخرى ويعتقد بالطبيعانية الميتافزيقية؛ لهذا فهو لا يعتقد بأيّ موجود ما فوق طبيعي:

«أنا أستنكر أيّ نوع ما فوق طبيعي (Supernatural)، ... هجومي هو على الإله أو الإله الواحد وجميع الأمور ما فوق الطبيعيّة، أينما كانت ومتى ما كانت وكيفما يمكن أن تكون» [Dawkins, The God Delusion, p.36].

انطلاقًا من هذه المقاربة، يحصر دوكينز الوقائع في الموجودات المادّيّة، ولا يعتبر إلّا الأدلّة المحسوسة شواهد معتبرةً؛ ولهذا فهو لا يعطي أيّ قيمة للدين والكتب المقدّسة. [Ibid, p 282-283]

كولينز: قبول الطبيعانية في منهج العلم

الحياة العلمية لكولينز تشير إلى أنّه كان يحترم العلم التجريبي والمنهج العلمي، وكان قد تقلّد زعامة أحد أكبر البحوث في القرن العشرين، ويعتقد أنّ «العلم هو الطريق الوحيد الصحيح المعتمد في البحث حول عالم الطبيعة، وأنّ المنهج العلمي هو الطريق الوحيد المؤكّد والمعتمد للبحث عن الحقيقة في الحوادث الطبيعية» [Collins, The Language of god, p.228]. وقد كان مطّلعًا على محدوديات العلم ونواقصه ويعلم أنّ «العلم يمكن أن يخطئ، وأنّه عاجز عن الإجابة عن أسئلة على غرار: لماذا خلقت الكائنات؟ ما هو معنى وجود الإنسان؟ وماذا سيحدث بعد الموت» [Ibid,

[Introduction, p.6]. وحسب رأيه فإنّ العلم ليس بمنزلة رؤية كونية ولا يمكنه أن يثبت أو يبطل الأمور ما فوق المادّية، ويرى أنّ أدوات فحص الأمور ما فوق الطبيعية هو «القلب والعقل والروح» لا المختبر والمنهج التجريبي [Ibid]؛ لذا فهو لا يتجاوز أبدًا حدود الطبيعانية المنهجية إلى الطبيعيانيّة الميتافزيقيّة.

وليس كولينز الوحيد في هذه المقاربة؛ لأنّ الكثير من العلماء في الغرب يركّزون على كون الطبيعانيّة الميتافيزيقيّة إلحاديّةً [Ruse, Michael and Joseph Travis.. Evolution: the first four billion years, p. 229] لكن لا بدّ من العلم أنّ الطبيعانيّة المنهجيّة ليست منهجًا خاليًا من أيّ إشكال؛ لأنّها تتضمّن افتراضاتٍ خفيّةً غير صحيحة، تجرّ العلماء التجريبيين ـ لاشعوريًّا ـ إلى مستنقع الإلحاد؛ ولذا يعتقد بعض العلماء الغربيين أنّ الطبيعانية المنهجية تقود الشخص إلى الطبيعانية الميتافزيقية والإلحاد. [Ibid, p.236]

أمّا المشكل الأساسي فلا بدّ من تتبّعه في النقطة المفصليّة في الطبيعانية المنهجية، وهي أنّها تفترض أنّه من أجل تبيين الظواهر يُكتفى فقط بالمادّيات المشاهَدَة، وهذ الكلام نفسه يعني أنّ الطبيعانيّة قبل هذا الفرض تستند ـ شعوريًّا أو لاشعوريًّا ـ إلى بعض المباني الأنطولوجيّة، وبتعبيرٍ آخر، يتضمّن هذا الفرض فروضًا فلسفيةً يعتبرها الشخص صادقةً وحتميّةً دون إثباتٍ، ومن هذه الفروض:

أـ حصر الطبيعة وعللها في الموجودات القابلة للمشاهدة، ومن هنا يحصر التأثير والعلّية في هذه الموجودات فقط.

ب ـ تقبل دون أيّ دليل أنّه ليس هناك أيّ علّة ما فوق طبيعيّة تتدخّل في الطبيعة وتؤثّر فيها، ومن هنا فإنّها تفترض أنّ الطبيعة مكتفية ذاتيًّا.

وبسبب هذه الإشكالات التي تعترض منهج العلم التجريبي، فإنّه ليس من صلاحيّة الطبيعانيين وليس لهم حقّ في إبطال القضايا الأنطولوجيّة كالإله والموجودات ما فوق المادّية، ولا بدّ أن يختاروا السكوت حول هذه القضايا، وأنّ يحترموا ادّعاءات منافسيهم، على غرار بعض ادّعاءات الدين فيما هو معقول أو ممكن في مجال الموجودات الطبيعية.

2ـ اختيار مقاربة المواجهة أو التكميل في مسألة علاقة العلم والدين

دوكينز: تعارض العلم والدين (Conflict)

يُعدّ دوكينز من أتباع النزعة المادّية، وينكر الموجودات ما فوق الطبيعيّة كالإله؛ لهذا يمكن أن نتوصّل إلى أنّه يعتقد بالتعارض بل والعداء بين العلم والدين، ويجد الحلّ في التخلّص من الكتاب المقدّس أو اعتبار مضمونه رمزيًّا. [Dawkins, The God Delusion, p.258]

وبناءً على هذا، فهو يبطل أيّ وجهة نظر تقترح التقارب بين الدين والعلم، كالمقاربة التي يعتقد بها العالم الأمريكي المعروف ستيفان غولد (Stephen Jay Gould) من أتباع نظرية التطوّر، وحسب غولد، فإنّ العلم والدين هما نطاقين غير متداخلين (Non Overlapping Magisterial)، ويرتبط كلّ واحد منهما بمجال يختلف عن الآخر، هذه النظرة المعروفة بـ (NOMA) تعتقد أنّ «شبكة ونطاق العلم يغطّي المجال التجريبي: كالسؤال عن العالم من أيّ شيء صنع (Fact)، ولماذا يعمل بهذه الطريقة (Theory)، نطاق الدين هو مجال يشتمل على المعاني الغائية والقيم الأخلاقية، وهذان المجالان ليسا متداخلين، ولا يشملان مجالات أخرى كمجال الفنّ ومعنى الجمال»

[Stephen Jay. "Impeaching a Self-Appointed Judge" (review of Phillip Johnson's Gould, Darwin on Iriat), Scientific American Journal, p.6].

ويوضّح هذا العالم في مقالة له بصراحة أنّ العلم لا يمكنه أن يبطل الإله:

«أقول للمرّة الألف لجميع زملائي: إنّ العلم لا يمكنه بمنهجه المنطقي أن يحكم حول احتمال إشراف الإله على الطبيعة، نحن لا يمكننا أن نؤيّد أو نردّ؛ لكنّه علينا بوصفنا علماء أن نجتنب إبداء رأيٍ في هذا الموضوع ... العلم لا يهتمّ إلّا بالوصف، ولا يمكنه أن ينفي أو يثبت دور فاعلين آخرين في عوالم أخرى؛ [لهذا] فإنّ الداروينية لا علاقة لها بأيّ شكل بوجود وماهيّة الإله» [Ibid, p.119].

ويخالف دوكينز هذه المقاربة ويعبترها "مملّةً ومبتذلةً"، وأنّه لا قيمة لكثير من الأسئلة بصيغة "لماذا" [Dawkins, The God Delusion, p.56]، ويعتقد أنّ غولد بدل أن يجد حلًّا للمسألة غيّر موضوعها، فالبحث الأصلي هنا يدور حول قبول وجود الإله وتأثيره على كلّ نظام الوجود، حتّى القوانين الطبيعيّة غير المتغيّرة، ومن الواضح أنّ وجود الإيمان أو عدمه سيكون له تأثير عميق على رؤيتنا للوجود، لأنّ «العالم الذي نتواجد فيه فقط نحن وبقيّة المخلوقات الذكيّة الأخرى التي تتكامل ببطء، يختلف كثيرًا عن العالم الذي يكون وجوده معلولًا لتصميمٍ ذكيٍّ» [Ibid, p.69]. بالاضافة إلى هذا «كلّ اعتقاد بالمعجزة ليس مخالفًا للحقائق العلميّة المثبتة فحسب، بل هو مخالف لروح العلم

كذلك» [Dawkins vs. Collins Debate, p.3]. وبقبول تأثير إلهٍ كهذا على كلّ مجالي كيف ولماذا، لا يبقى هناك مكان للفصل بين مجالي العلم والدين.

ويعتبر دوكينز أنّ الدافع لهذا التنظير هو السياسة الحاكمة على المجتمع الأمريكي، فغولد قد سعى بضغط من الخلقيين، أن يفصل مجالي الدين والعلم، ويرضي بذلك المتديّنين في أمريكا، ويحفظ كذلك مجال العلم من تجاوزاتهم. [Dawkins, The God Delusion, p.54]

كولينز: انسجام العلم والدين (Harmony)

ليس هناك أيّ نزاع بين العلم والدين من وجهة نظر كولينز، فهو يعطي قيمةً للعلم والإيمان، ويعتقد أنّ «الإيمان بالله يمكن أن يكون اختيارًا حكيمًا، وأنّ قوانين الإيمان هي في الواقع مكمّلة لقوانين العلم» [Collins, The Language of God, Introduction, p.3]؛ لأنّ نطاق كلّ واحد ومنهجه من هذين المجالين يختلف تمامًا عن الآخر.

«العلم عاجزٌ عن الجواب عن أسئلة على غرار: لماذا نشأت الكائنات؟ ماذا يعني وجود الإنسان؟ وما الذي سيحدث بعد الموت؟ [لهذا] فإنّ مجال العلم هو البحث في الطبيعة ومجال الإله هو العالم المعنوي الذي لا يمكن البحث فيه بالأدوات واللغة العلمية، هذا النطاق لا بدّ من إدراكه عن طريق القلب، العقل وروح» [Ibid, Introduction, p.6].

وهذا هي نفس المقاربة التي اختارها بيتر مداوار (Peter Medawar) الحائز على جائزة نوبل، فمع ثنائه الكبير على العلم، فهو يميّز الأسئلة المادّية وغير المادّية، ويعدّ الأولى متعلّقةً بالعلم التجربي والثانية بالدين والميتافيزيقيا:

«بالنظر إلى الأسئلة التي لم يستطع العلم ـ مع جميع هذه التطوّرات التي لا تصدّق ـ أن يجد لها حلًّا، فالكلام عن محدودية العلم كلامٌ محتملٌ إلى حدٍّ كبيرٍ وصادقٌ، فلطالما دارت في ذهني بعض هذه الأسئلة ... كيف نشأت الموجودات؟ لماذا نحن هنا؟ ما هو الهدف من الحياة؟» [Medawar, Peter, The Limits of Science, p.66].

في مناظرةٍ له مع دوكينز، لا يعدّ كولينز قبول وجهات النظر الأحيائية لهذا الملحد نافيةً لحياته الإيمانية، ويعتقد أنّ بحثه في الدين لم يلغ أبدًا استقلاله العلميّ.

«أريد القول فقط أنّه بعد ربع قرن من الاشتغال في العلوم التجريبية والحياة الإيمانيّة، لا أجد أيّ مانع من قبول جميع أقوال دوكينز حول الطبيعة وعالم التكوين، وعلاوةً على ذلك أقول إنّه ما أكثر الأسئلة حول عالم الوجود التي بقي العلم عاجزًا عن الإجابة عنها؛ أقصد أسئلة عن "لماذا"

وليس عن "كيف"، أرغب في أنّ أجد إجابة لأسئلة "لماذا" التي أجدها في مقولاتي الإيمانية والمعنوية، وفي الوقت نفسه لا يكون أبدًا استقلالي الفكري باعتباري عالمًا تجريبيًّا كمقابل لذلك» [Dawkins vs. Collins Debate, p.3].

إلّا أنّه يصرّح في موضعٍ آخر أنّه لا يعتقد بـ (NOMA) غولد؛ لأنّه يعتقد أنّ «الأحيائي الراحل غولد كان مؤيّدًا للمجالات المنفصلة للعلم والدين، ووجهة النظر هذه تسبّبت في عداء داخلي، وحرمت الكثير من الاستفادة الكاملة من العلم أو الروحانية؛ ولهذا كانت هذه المقاربة لا تبعث على الرضا» [Collins, The Language of God, p.6].

وحسب اعتقاده، فإنّ غولد بنظريته هذه «قد بنى جدارًا بين عالمين» [Dawkins vs. Collins Debate, p.3]؛ لهذا فإنّ كولينز سلّم بوجود مقاربة أخرى يكون فيها العلم والدين منسجمين ومتوافقين على رغم اختلاف في المنهج والأسئلة، في هذه المقاربة «دراسة عالم الطبيعة فرصةٌ لمشاهدة عظمة وتعقيد خلق الله» [Ibid].

«هل ما زال هناك لحدّ الآن إمكان لوجود تناغم جديد ومُرضٍ بين الرؤية الكونية العلمية والروحانية؟ جوابي هو "نعم" بصوت عالٍ، حسب اعتقادي ليس هناك داخل أيّ واحدٍ منّا أيّ تعارض وعداء بين عالم متشدّدٍ ومؤمنٍ» [Collins, The Language of God, p.6].

وقد ارتضى بعض فلاسفة الدين هذه المقاربة القائلة بأنّ الدين يستعين بالأدوات العلمية المقبولة حتّى يُحدّث تعاليمه ويجيب على الشبهات، وقد سمّى ماك غراث هذه النظرة بوما (Partially Overlapping Magisteria = POMA)، ويعتقد بتشابك الموضوعات والمناهج المستعملة في العلم والدين؛ ولهذا فإنّ مجالي العلم والدين ينطبقان إجمالًا.

[Alister E McGrath and Joanna Collicutt McGrath, the Dawkins Delusion? Atheist Fundamentalism and the Denial of the Divine, p.41]

3ـ تقديم مقاربة إلحادية أو توحيدية لنظرية التطوّر

دوكينز: نظريّة التطوّر الإلحادية وإبطال أيّ نظرية تعتقد بالخلق

مادّية دوكينز تعارض وجود كائنات ما فوق مادّية، وبهذا يبطل نظرية الخلق (Creationism) وخلق الله للطبيعة، وفي تحليله لهذا الاصطلاح يقدّم دوكينز نوعين من الخلق؛ يسمّي الأوّل هو الخلق الآني (Instantaneous Creation)، وحسب هذا الاعتقاد فإنّ الله يخلق الموجودات بشكل آني ومنفصل، وفي معارضته لهذه النظرة يعتقد دوكينز بالتدريج والتطوّر الداروينيي، ويعتبر أيّ عمليّة

دفعية فجائية في تشكّل المخلوقات غير صحيحة، ويرى أنّ «المتديّنين المعاصرين بجميع مشاربهم تنازلوا عن هذا النوع من الخلق؛ لأنّ هناك شواهد غير قابلة للانكار عن وجود نحو من التطوّر» [Richard, Dawkins, The Blind Watchmaker p.316]. أمّا النوع الثاني من الخلق فهو التطوّر الموجّه (Guided Evolution)، هذه النظرة التي لديها أتباع كثر بين اللاهوتيين المعاصرين، وهذا القسم يرى أنّ الله يخلق الموجودات من خلال عمليّة تطوّرية، والملفت هنا أنّ دوكينز يرفض هذا النوع من الخلق كذلك.

«هناك بونٌ شاسعٌ بين ما يسمّى "الخلق الآني" وما يسمّى "التطوّر الموجّه" ... لكنّ الكثير من المتديّنين ومن بينهم أسقف بيرمنغهام الذي يعتبر نفسه تطوّريًّا... يفتحون الطريق أمام الخالق للولوج من الخلف، ويسمحون له بأن يلعب دور القائم على عمليّة التطوّر على مرّ التاريخ، سواءٌ بتدخّله في لحظات مصيريّة معيّنة في تاريخ التطوّر، أو بالتدخّل الواسع في جميع الحوادث التي تشكّل في مجملها التغيّرات التطوّرية. نحن لا نستطيع أن نثبت كذب هذه الاعتقادات، وخاصّةً إذا افترضنا أنّ الخالق متيقّظٌ دائمًا، ونتيجة مداخلته يشبه نفس ذلك الشيء الذي نتوقّع أن يحدث من خلال الانتقاء الطبيعي، الشيء الوحيد الذي يمكن أن نقوله حول اعتقاد كهذا هو أنّه أوّلًا سطحي وساذج وثانيًا أنّهم يفترضون وجود ذلك الشيء مثل تعقيد منظّم وهو ما نسعى نحن لتبيينه» [Ibid, p.316].

وبنظرة كهذه لا يبقى هناك أيّ مجال لأيّ نوع من الخلقيّة؛ ولهذا يعتبر دوكينز أيّ تدخّل للإله توهّمًا، ويحكم بعدم توافق وانسجام نظرية التطوّر والإيمان بالله.

«نظرية التطوّر وخاصّةً الانتقاء الطبيعيّ يقضي على وهم الخلق في مجال الأحياء، ويعلّمنا أن نشكّك في أيّ فرضية عن الخلق في مجال الفيزياء والكونيات» [Ibid, The God delusion, p.118]. [إنّ] «نظرية التطوّر مع الانتقاء الطبيعي التراكمي هي النظريّة الوحيدّة المعروفة التي تفي وتكفي لتوضيح الوجود المعقّد المنظّم، وحتّى إذا لم تكن الشواهد في صالحها، فهي مع ذلك أفضل نظرية بين أيدينا، والأكيد أنّ هناك شواهد في صالحها» [Richard, Dawkins, The Blind Watchmaker, p.317].

في النظام الفكري لدوكينز، الانتقاء الطبيعي لداروين هو الحلّ الأخير للغز الحياة والعمليات المرتبطة به؛ لأنّنا «تشكّلنا عن طريق الانتقاء الطبيعيّ، وإذا إردنا أن نعرف حقيقتنا وهويّتنا لا بدّ أن نفهم الانتقاء الطبيعيّ» [Ibid. Selfish Gene. Preface].

ويذكر دوكينز ثلاثة احتمالات: الصدفة والخلق والانتقاء الطبيعي لتبيين الحياة، ومن بين هذه الاحتمالات الثلاثة يختار الانتقاء الطبيعي، وفي نظره هذا الحلّ هو البديل الأمثل للاحتمالين

الآخرين.

«الخلق ليس هو البديل الوحيد للصدفة، هناك الانتخاب الطبيعي كبديل أفضل، في الحقيقة، الخلق ليس بديلًا أصلًا؛ لأنّ الخلق يجرّ عقبةً هي أصعب من تلك التي يسعى إلى حلّها، فمن الذي خلق الخالق نفسه؟ الصدفة والخلق يفشلان كحلّ للإحتمال الاحصائي؛ لأنّ أحدهما هو المسألة نفسها والآخر التفاف عليها، الحل الحقيقي هو الانتقاء الطبيعي، هذا الهو الحلّ الوحيد الفعّال المقترح لحدّ الآن، وهذا الحلّ ليس فعّالًا فحسب بل أكثر من ذلك، إنّه مذهل لأنّ لديه قدرةً عجيبةً» [Ibid, The God Delusion, p.121].

كولينز ونظريّة التطوّر التوحيديّة **(Theistic Evolution)** وإثبات نحو من الخلق

في النظام الفكري لكولينز، كلٌّ من العلم والدين يحتلّان مكانةً عاليةً، فهو يعتقد بالإله والخلق، ومن هنا لا بدّ من اعتباره معتقدًا بالخَلقيّة؛ التي تعني عنده الشخص الذي يعتقد بالإله الذي يخلق الكائنات مباشرةً [Collins, The language of God, p.171] ومع أنّ التعريف السابق يضمّ مجموعةً كبيرةً؛ ولكنّه يستعمل عادةً ليطلق على نسخته الأكثر إفراطًا، في هذه النسخة التي تعدّ اقتباسًا حرفيًّا من سفر التكوين في العهد العتيق للمسيحيين واليهود، فسّر 3 أيّامٍ من الخلق بـ 24 ساعةً، ويعتقد بعضهم أنّ عمر الأرض أقلّ من 10000 سنة، وليس هناك أيّ حدّ وسط من حفريات لطيور أو فيلة أو حيتان، ويسمّي هذه النسخة من خلق الأرض «خلقيّة الأرض الفتيّة» (Young-Earth creationism) [Ibid, p. 172] وحسب كولينز فإنّ هذا النوع من الخلقيّة ترد عليه الإشكالات التالية: [Ibid, p. 172-178]

أـ يعتقد هؤلاء بالتطوّر والتغيّرات الطفيفة داخل الأنواع (Microevolution) لكنّهم لا يقبلون تحوّل نوعٍ إلى نوعٍ آخر أو التطوّر الكلّي (Macroevolution). [See: Collins Francis S. and Karl W. Giberson, the Language of Science and Faith: Straight Answers to Genuine Questions , p. 45]

ب ـ حسب اعتقاد بعضهم على غرار هنري موريس، فقد توقعنا الحفريات في أخطاءٍ؛ لأنّ طبقات الأرض وحفرياتها نشأت خلال عدّة أسبوع عن طريق فيضان كوني، هذا الفيضان الذي تمّ وصفه في الأبواب الستّة لسفر التكوين.

جـ يعدّ هؤلاء الأفراد التطوّر كذبةً؛ لأنّهم يعتقدون أنّ ارتباط المتعضّيات كما تشير إليه بحوث (DNA) ليس واقعيًّا، وليست العضيّات إلّا حصيلةً لخلق الإله.

د ـ حسب بعض الخلقيين، جميع الشواهد على غرار ساعات اضمحلال النشاط الإشعاعي والحفريات وجميع سلسلة الجينوم، تمّ تصميمها عمدًا من طرف الإله لتضليلنا من خلال العمر

الطويل للكائنات ،ولكي يختبر الله إيماننا.

ويحذّر كولينز من خلال عرض هذه الاشكالات من أنّه «ليس العلم هو الذي يسبّب ضررًا هنا، بل الخلقية هي التي تسبّب ضررًا أكبر لإيماننا، لأنّها تشير إلى أنّ الاعتقاد بالله يستلزم قبول ادّعاءات عن عالم الطبيعة خاطئة بالكامل» [Collins, The God Language, p.178]. وبرفضه لهذه النسخة الإفراطية للخلقيّة، يطرح نوعًا آخر من الخلقيّة تتوافق بشكل كبير مع علم الوراثة وعلم الأحياء الحالي، وترتكز هذه الرؤية على ركنين:

أ ـ قبول مبدإ التطوّر باعتباره عمليةً في عالم الطبيعة: كولينز عالم وراثةٍ بارزٌ في القرن الحالي، وتعتبر بحوثه مؤيّدةً لنظرية التطوّر، ومن هنا يعتقد أنّ «التطوّر هو آلية يمكنها ويجب أن تكون واقعيّةً» [Ibid, p.84].

ب ـ الإيمان بالله وكونه خالقًا: يعتقد كولينز قلبًا وقالبًا بالله، ويستعمل الشواهد العلميّة والأخلاقيّة من أجل إثبات وجود الله، إلـهٌ فوق الزمان والمكان وهو خالق جميع أنواع المخلوقات من خلال العمليات الطبيعية، ومع أنّه يمكن أن تبدو أفعاله لنا نحن المحدودين بالزمان والمكان صدفةً أو بلا هدفٍ، لكنّه قادرٌ وعالمٌ بكلّ الجزئيات في الوقت الحاضر وفي المستقبل [Ibid, p.205-206]، وهذه النظرة هي خطأ فاحش في رأي دوكينز؛ لأنّه حسب رأيه لا معنى لأن يخلق الله عالمًا قبل 10 مليارات سنة ثمّ يصبر حتّى يتطوّر الإنسان من خلال عمليّة التطوّر التدريجية ويقوم بعبادته [Dawkins vs. Collins Debate, p.4]، أمّا كولينز فيعتبر هذا الإشكال خاطئًا، ويعتقد أنّه ليس بإمكاننا إدراك جميع تصميمات موجود كالإله بأيّ وجه؛ لهذا لماذا لا يعقل أن يختار الإله عمليّة التطوّر لخلق ذاته؟ ويواصل ليشير إلى هذه النقطة المهمّة، وهي أنّه «لا بدّ أن نقبل أنّ الانفجار العظيم (The Big Bang) يحتاج إلى تفسير إلهي، وأنّ الكون نشأ في لحظة معيّنة؛ لأنّني لا أستطيع أن أدرك كيف للطبيعة أن تستطيع خلق نفسها، إذن فهناك قوّة ما فوق طبيعيّة هي التي استطاعت القيام بعمل كهذا» [Collins, The God Language, p. 67].

وبتوفّر هذين الركنين، يعرض كولينز شكلًا جديدًا من الخلقيّة، يستند فيها الله إلى العملية التطوّرية التدريجيّة لكي يخلق الموجودات، وحسب اعتقاد كولينز، فإنّ هذه الرؤية اشتهرت بـ نظريّة التطوّر التوحيديّة (Theistic Evolution) ولديها الكثير من الأتباع من علماء الأحياء وأعلام علم اللاهوت، ويعتقد أنّ أغلب علماء الأحياء المعروفين على غرار: آسا غراي (Asa Gray) وتيودور دوبزانسكي (Theodosius Dobzhansky) يؤيّدونها، كما يوافق الكثير من الهندوس والمسلمين واليهود والمسيحيين هذه النظريّة [Ibid, p.199] وحسب رأيه فإنّ «معارضة التطوّر الشامل في أمريكا بالخصوص، تعود إلى تلقيّهم بأنّها تتعارض مع دور مصمّم ما فوق طبيعيّ» [Ibid, p .149]. ويعتبر أنّ

وجهة نظر زعيم المسيحيين الكاثوليك في العالم هي الحلّ لهذا الاضطراب والتوتّر، فقد أرسل البابا يوحنّا بولس الثاني (John Paul II) رسالةً إلى أكاديمية العلوم يعبّر فيها عن قبوله لنظريّة التطوّر في نطاق البدن الجسماني، كما يركّز على الخلق المباشر لروحٍ ما ورائية من طرف الإله:

«تقودنا الاكتشافات الجديدة أكثر من قبل إلى الاعتراف بنظريّة التطوّر، وعلى قول البابا بيوس الثاني عشر (Pius XII) إذا كان نشأة الإنسان من موجود حيّ كان موجودًا من قبل، فإنّ الروح الماورائية خلقت من قبل الله مباشرةً» [Pope John Paul II, "Message to the Pontifical Academy of Sciences: On Evolution," Oct. 22, 1996].

وقبل البابا كذلك لاقت هذه المقاربة استقبالًا من طرف بعض اللاهوتيين مثل بنيامين وارفيلد (Benjamin Warfiled)، الذي اعتبر في عصر داروين التطوّر «نظريّةً لأسلوب عمل المشيئة الإلهيّة» [B. B. Warfield, The Works of Benjamin B. Warfield, vol. 9, p.235].

هناك كذلك الكثير من فلاسفة الدين مثل باربور وبلانتينغا يعدّون أنّه يمكن أن يجتمع خلق الله مع عمليّة التطوّر، وفي الوقت نفسه لا يحمّلون نظرية التطوّر فهومًا إلحاديّةً.

«فهمنا للخصائص الكلّية للطبيعة يؤثّر في نماذجنا لعلاقة الإله بالطبيعة، الطبيعة اليوم تُفهم كعمليّة تطوّريّة ومتحرّكة يصاحبها تاريخ طويل من الإبداع الجديد الذي يتعيّن من خلال الصدفة والقانون» [Barbour, Religion and Science, p. 101].

وفي الأخير يقترح كولينز أن يغيّر اسم التطوّر التوحيدي إلى (Biologos)، الجزء الأوّل من هذا الاصطلاح (Bion) يشير وإلى الحياة والجزء الثاني (Logos) ـ في اللاهوت المسيحي ـ يشير إلى الإله، وبدمج هذين الجزءين يتشكّل لدينا اصطلاح جديد «يشير إلى الاعتقاد بأنّ الإله هو منشأ كلّ الحياة، وهذه الحياة هي تجلٍّ لإرادة الإله» [Collins, The Language of God, p. 203].

4ـ الإيمان بالإله أو الإلحاد

دوكينز: الإلحاد المأخوذ من فرضيات غير علميّة

يعتبر دوكينز من أكثر الملحدين شهرةً وأكثر من يرجع إليه في هذا الموضوع، وتعود شهرته الواسعة إلى لغته وكتاباته الأدبيّة؛ لهذا فقد حصل بسبب تأليفه لبعض الكتب كـ "صانع الساعات الأعمى" على جوائز أدبيّة، وقد خطى دوكينز ـ وعلى خلاف داروين ـ خطوة أبعد من علم الأحياء، وسعى كثيرًا لأن يستبدل نظريّة التطوّر إلى رؤية كونيّة إلحادية بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى

[Dawkins, A Devil's Chaplain p. 78-90]؛ لهذا فقد أشار في تأليفاته دائمًا ـ إلى جانب هذه النظرية ـ إلى لوازمها اللاهوتية والفلسفية والأخلاقية كذلك، وبتمعّن في كتبه حسب الترتيب الزمني، يتبيّن أن الأمر توسّع بمرور الزمن، وبلغ أوجّه في كتاب "وهم الإله".

وقد ركّز دوكينز أوّلًا على توضيح الإلحاد وعدم وجود الإله، لكنّه بعد أن واجه إشكالاتٍ كثيرةً، يظهر أنّه تحوّل إلى مقاربة أقرب إلى اللاأدرية، واعتبرها الموقف الأكثر معقوليّةً، وحسب قول دوكينز، فإنّ هذا الموقف هو أمر بين الإلحاد في مقام العمل (Atheist De Facto) أيّ أنّ هناك احتمالًا ضعيفًا جدًّا لوجود الإله ولكنّه أكبر من الصفر، والإلحاد القويّ (Strong Atheism) أيّ اليقين بعدم وجود الإله. [Ibid, The God Delusion, p. 51] ويعتبر دوكينز أنّ هذه المقاربة ناتجة عن قراءته الجديدة لنظرية التطوّر:

«باعتباري عالم أحياء يمكنني القول أنّه ... كلّما أدركتم كفاءة نظرية التطوّر أكثر، ستتحوّلون أكثر من موقف لاأدري إلى إلحاديّ ... لا يمكنني أن أثبت أنّه لا وجود لإله، لكن يمكننا أن نستنتج بكلّ تأكيد أن وجوده مستبعدٌ جدًّا جدًّا»

[Dawkins, The "know-nothings", the "know-alls", and the "no-contests" A lecture by Richard Dawkins extracted from The Nullifidian, December 1994]

ويلاحظ ميل دوكينز إلى "الإلحاد القويّ" في كلّ موضع من كتبه إلى حدّ أنّ الآخرين لا يعتبرونه لاأدريًّا، إضافةً إلى أنّه هو نفسه لا يركّز عليه:

«أن أكون ملحدًا هو رغبة واقعية، رغبة شجاعة وعظيمة، يمكنك أن تكون ملحدًا سعيدًا، معتدلًا، أخلاقيًّا، ومثقّفًا» [Dawkins, The God Delusion, p. 1]. «ليس هناك أيّ داعٍ لأنّ تخجل من إلحادك، على العكس علينا أن نفتخر بإلحادنا ... لأنّه كان دائمًا دليلًا على الاستقلال الذهني، وهو في الحقيقة أمارة على كون الذهن سالمًا» [Ibid, Preface, p. 4].

وهناك طائفة أخرى من علماء الأحياء على غرار إدوارد ويسلون (Edward, Wilson) لديهم نفس رؤية دوكينز الإلحادية لنظرية التطوّر، ويعتقد أنّ «التطوّر تغلّب على أيّ نوع من نحو من النزعة ما وراء الطبيعيّة» [Wilson. E. O. On Human Nature, p.192]. والأكيد هو أنّ برتراند راسل هو الأب المعنوي لدوكينز في هذا الموضوع [Varghese in: Flew, 2007. Preface. P. xviii] يقول راسل في مقالته "هل أنا ملحدٌ أو لاأدريّ":

«باعتباري فيلسوفًا، إذا أردت أن أتكلّم إلى جمهور فلسفيّ، سأصف نفسي بأنّي لاأدريٌّ، لأنّني لا أعتقد أنّ هناك برهانًا قاطعًا يمكن لأحد أن يثبت به عدم وجود الإله، ومن جهة أخرى إذا

أردت أن أنقل انطباعي الصحيح إلى إنسان عادي في الشارع سأقول أنّي ملحدٌ» [Russel, Am I An Atheist Or An Agnostic, p. 1].

كولينز: الإيمان بالله وعدم الاستغلال السيّئ للعلم

أمّا حسب نظر كولينز، ليس هناك في العلم أو في نظرية التطوّر ما يثبت الإلحاد؛ لأنّ نظرية التطوّر، بناءً على المنهج العلمي والطبيعانية المنهجية ليست وظيفتها إلّا التبيين على مستوى الموجودات الطبيعيّة، وليس أكثر من ذلك، ومن هنا فإنّ هذه النظرية ساكتةٌ فيما يخصّ إثبات الموجودات ما فوق الطبيعيّة أو ردّها.

«يعتقد دوكينز أنّ العلم يستلزم الإلحاد، الخطأ الأساسي الذي وقع فيه دوكينز هو أنّه أتى بكلام لا يستند إلى أيّ دليل أو شاهد، فإذا كان الإله خارج الطبيعة، لا يستطيع العلم إثباته أو ردّه، فالإلحاد هنا مفترض كإيمان أعمى، وهو سيكون من الناحية المنطقيّة اعتقادًا غير قابل للدفاع» [Collins, The Language of God, p.165].

ويعتبر كولينز أنّ هذه المقاربة تجري على الإيمان بالإله كذلك؛ ولهذا فهو لا يبني الإيمان بالإله على أساس نظرية التطوّر؛ لأنّه يعتقد «مع أنّ التطوّر باعتباره آليةً يمكنه بل ويجب أن يكون واقعًا؛ لكنّه لا يقول أيّ شيء فيما يخصّ ماهيّة الخالق» [Collins, The Language of God, p. 85]، هذه المقاربة لكولينز لديها أتباع كثر بين العلماء، ومنهم غولد الذي قال كلامًا مشهورًا في هذا الصدد:

«إمّا أن يكون نصف زملائي حمقى في الأصل، أو أنّ العلم بنسخته الداروينية يتناسب بشكل كامل مع الاعتقادات الدينية الكلاسيكية كما يتناسب مع الإلحاد» [Gould, Impeaching a Self-Appointed Judge, p. 119].

لهذا فكولينز يستنتج في الأخير: «على أولئك الذين اختاروا أن يكونوا ملحدين، أن يبحثوا عن دليل آخر لهم، فالتطوّر لا يمكن أن يكون دليلًا على الإلحاد» [Collins, The Language of God , p. 167].

ثمّ بعد ذلك يعيب على المقاربة اللاأدرية (Agnosticism) بأنّها على الرغم من أنّها اتّخذت موقفًا غير منحاز، ولم تتعدَّ على نظرية التطوّر كما فعل الإلحاد الدوكينزي، إلّا أنّها مقاربة فيها مخاطرة وهي نوع من اللامبالاة والتقصير تجنّبًا لوجع الرأس، لأنّه من النادر أن نجد لاأدريًّا انتبه بشكل كامل إلى جميع الشواهد المؤيّدة أو الرافضة للإله. [Ibid, p.167]

النتيجة

تمّ في هذا المقال دراسة مقاربتين لنظريّة التطوّر إحداهما إلحادية وأخرى مؤمنة، وهذا من أجل تحقيق هدفين مهمّين: الهدف الأوّل هو أن نبيّن أنّ نظريّة التطوّر هي على غرار النظريات العلميّة الأخرى، ليست إلّا تفسيرًا علميًّا لعالم الموجودات الطبيعيّة وهي ساكتةٌ إذا تعلّق الأمر بوجود الإله أو عدم وجوده، ومن هنا فهي ليست في نفسها نظريةً إلحاديةً ولا إلهيّةً؛ لذا فإنّ إلحاد بعض التطوّريين على غرار دوكينز هو نتيجة لخروجهم عن أطر العلم وخلطهم بين الطبيعانيّة المنهجيّة والطبيعانيّة الأنطولوجيّة، بالإضافة إلى ذلك فإنّ الكثير من كلام دوكينز، اتّخذ فيها نهجًا لاهوتيًّا فلسفيًّا، في حين أنّ دوكينز هو أحيائيٌّ تطوّريّ؛ لهذا على دوكينز أن يعلم أنّه لا يمكن عن طريق المنهج التجريبي الحديثُ حول علم ينتهج المنهج العقليّ والاستدلالي، فهذا أنطوني فلو (Antony Flew) الذي أمضى عمره في الإلحاد يبيّن للعلمويين هذه النقطة حول الفلسفة: «إذا أراد العالم أن يتكلّم كفيلسوف عليه أن يبدي رأيه في مستوى الأمر الفلسفي، وقد قال أينشتاين أنّ رجل العلم فيلسوف فقير» [Flew, There is a God, p. 91].

أمّا الهدف الثاني فهو عرض مقاربة بعض العلماء المؤمنين مثل كولينز، في تلفيقه للتطوّر الداروينيي والخلقيّة، فقد اعتبر من خلال تقديمه لنموذج "التطوّر التوحيدي" أنّ هذه النظرية العلميّة تتناسب والخلق الإلهي، وهذا النموذج حيث إنّه مقدّم من طرف عالم تجريبي، فهناك بعض النقاش في جزئياته اللاهوتيّة؛ إلّا أنّه يبيّن أنّ الإيمان بالإله لا يتنافى بأيّ شكل مع نظرية التطوّر.

References

Barbour, Ian G. (1997). Religion and Science, Historical and Contemporary Issues. New York: HarperCollins Publishers

B. B. Warfield, (1911)."On the Antiquity and the Unity of the Human Race," Princeton Theological'Review' 9:1. 1-25. [reprinted in The Works of Benjamin B. Warfield, vol. 9. New York: Oxford, 1932.]

Collins. Francis S. (2006).The Language of God. New York: Free Press

Collins. Francis S. and Karl W. Giberson. (2011). the Language of Science and Faith: Straight Answers to Genuine Questions. Downers Grove: InterVarsity Press. Pp. 251

Collins vs. Dawkins Debate. (TIME International: Nov. 05, 2006). God vs. Science. By David Van Biema Sunday.see:http://content.time.com/time/magazine/article/0,9171,1555132-4,00.html.

Dawkins, Richard. (1979).The selfish gene. 2nd EdOxfor University Press

Dawkins, Richard. (1986).The Blind Watchmaker. New York: Norton

Dawkins, Richard. (1994). The "know-nothings", the "know-alls", and the "no-contests" A lecture by Richard Dawkins extracted from The Nullifidian, December 1994. In: https://thirdworldtraveler.com/Dawkins_Richard/NoNothings_Dawkins.html

Dawkins, Richard. (2003). A Devil's Chaplain. London.Weiden field & Nicolson

Dawkins, Richard. (2006).The God Delusion.Transworld Publishers

Flew, Antony, (2007). there is a god; how the world most notorious atheist changed his mind. With Roy Abraham Varghese. HarperCollins e-books

Gould, Stephen Jay. (1992)"Impeaching a Self-Appointed Judge" (review of Phillip Johnson's Darwin on Iriat), Scientific American Journal.

Gould, Stephen Jay. (1999). Rocks of Ages: Science and Religion in the Fullness. New York: Ballantine

McGrath, Alister E McGrath and Joanna Collicutt McGrath. (2007). the Dawkins Delusion? Atheist Fundamentalism and the Denial of the Divine. The United States of America: InlerVarsity Press

Medawar, Peter. (1985). The Limits of Science ،Oxford: Oxford University Press

P. E. Johnson, (1993).Darwin on Trial, 2nd edn (Washington, DC: Regnery Gateway,

Pope John Paul II, "Message to the Pontifical Academy of Sciences: On Evolution," Oct. 22, 1996

Ruse, Michael and Joseph Travis. (2009). Evolution: the first four billion years. Harvard University Press,

Russell, Bertrand (1947). "Am I An Atheist or an Agnostic?" Encyclopedia of Things. Archived from the original on 22 June 2005.

Wilson. E. O. (1978). On Human Nature. Cambridge: Harvard University Press